وتوصل، بعد التفكير، الى ان يدع مهمّة طرد اليهود، الذين اقاموا مستعمرتهم على هضبة الكلاب، لفوزي القاوقجي وأهل الطابغة نيام لا تطالهم يد السلطة، فهي لا تستطيع ان تثبت عليهم شيئاً، ما داموا لم يقوموا بشيء، وأرسل ابنه الى قائد الثورة في هذه الشأن.

«وبعد ان اتخذ هذا القرار أحس بالراحة والسلام بينه وبين نفسه. وهو، تحت مظهره العنيف، يعرف انه ضعيف وفاسد وشره. لكنه كان يعرف، أيضاً، ان حبه لبلاده صادق وانه يدافع عنه ضد المحتل بالحيلة والشجاعة، بالابتسام والخيانة، وكان مستعداً، تماماً، في تلك اللحظة على الاقل، ان يسلّم نفسه للشنق دون ان يرتجف لو وضعوا رقبته في المشنقة».

وفيما كان أهل الطابغة نياماً، كانت التراكتورات تفتح الحدود النهائية لبرج عذرا. وكان قائد المجموعة روبين يقرأ على المعمّرين مهمة كل منهم التي اوكلت اليه من قبل القيادة، وهو «صامت ممسك بأنفاسه».

ولا ينس ان يصف حوارات العرب، ومناقشاتهم، وضجيجها، وفوضاها، فيما يصغي اليهود، في غاية الهدوء والسخر الساكت. وهنا أقحم مشهداً مصطنعاً في صلب الرواية: وفد من وجهاء الطابغة ترافقه جماعة من سكانها بينها نساء واطفال. لم يسمح المعمّرون بالدخول الاّ لاثنين منهم كي يناقشهما بومان.

الوفد تهدد بومان بالموت، فأجاب ذاك بأنهم مستعدون لكل تقلبات القدر، وبخاصة الموت.

لان الوفد قليلاً، فقال: «كيف تأخذون أرض آبائنا وأجدادنا ؟

«اشتريناها بدراهمنا؛ ولقد كانت، قبل ذلك، أرض آبائنا وأجداد أجدادنا...».

وعندما خرج الوفد، تخلّف، قليلاً، أحد عضويه ليقول لبومان: «ان سكان الطابغة هم أناس مسالمون؛ أما عرب الهضاب الاخرى، فهم أقل مسالمة، فخذ علماً... وأضاف بصوت خفيض: ' كلّفني المختار ان انقل لك هذا التحذير، اثباتاً لحسن نيّته، ولو علم الوطنيون بالامر لدفع الثمن غالياً ' ».

أجاب بومان: «مختاركم خبيث. ان احداً لا يحب رؤية بيته وهو يتهدم. مختاركم كثعلب يقطن وجراً له مدخلان، أحدهما شرقي والآخر غربي».

يتضح لدى أي قارىء ان كوستلر يورد هذه الاحاديث كي يناقش حجج العرب بالتمسّك بفلسطين، ويظهر أرجحية الذرائع اليهودية. لكن القفلة كانت، دائماً، من نوع يسترعي الانتباه الشديد. مثلاً، سأل جوزيف بومان: «هل فهمت موقفه ؟ [يعني موقف الوفد].

« ـ لا يجوز لنا ان نبيح لانفسنا فهم موقف الآخرين».

ثم سأل جوزيف لائماً: «لم لا تسمح لهم بالدخول جميعاً واستقبلت اثنين فحسب ؟ هذا تصرف غير كريم».

أجابه بومان بأن تلك مسألة نفسية مدروسة. وهو عنى انه عندما يبيح لهم الدخول يشعرون بانهم مساوون له، وهو يود ان يحدث لهم الصدمة النفسية التي تؤدي بهم الى الاحساس بأنهم أدنى منه، انهم ليسوا احراراً بالتصرف حيث يضع قدمه.

انتقل من وصف هذا اللقاء الى وصف الحياة الجديدة للمعمّرين وألحّ على المظهر الجماعي الذي يجد تتويجاً له في رقصة الهورا. ولقد كنت أمر بها دون اهتمام، لولا انه اعطاها طابعاً سيكولوجياً شديد العلاقة بالبنية الجديدة للمعمّرين. فهي تتوّج عنده في نهايتها بما يشبه الوجد الذي يوحّد بين الجماعة في نغم واحد، وتعبير واحد، وحركة واحدة صوفية يتساوى فيها الموت والحياة، كلهم ساهموا الاّ دينا التي انسحبت وذهبت الى مهجعها ونامت في ثيابها؛ ذلك ان ذكرياتها استيقظت على اقسى ما تكون: توقيف أبيها، ومن ثم توقيفها هي قبل ان تجتاز الحدود، وفقدانها بكارتها ابّان التحقيق، ممّا سبب لديها تآقاً يدفعها الى التقزز من أدنى لمس من أي رجل، وحتى لو كانت لمسة كتف.